أميرة النجار

لقاء بلا موعد

تلك اللحظات في حياتنا التي تقربنا إلى أنفسنا أكثر فأكثر.... أو تبعدنا.... أو تسبب لنا الآلام والآهات... توصلنا إلى الأفضل دائمًا أينما كنا في رحلة الحياة.

وإحدى تلك اللحظات الفارقة في حياتنا، هي من انتلشت سعاد من دوامة همومها وضياعها...

عندما نظرت لعينيها في المرآة كعادتها، تتساءل.. لماذا لم أصل حتى الآن إلى تحقيق ذاتي؟؟!!

كيف سأكمل حياتي وأنا لا أستطيع حتى أن أقوم بأبسط مهامي اليومية؟؟!!

وفِي أثناء انشغال عقلها باسترجاع شريط أحزانها...... فجأة، تجلت لها ذاتها الداخلية على صورتها الحقيقية... رأت روحها تسكن في سجن من الضياع والتيه والحرمان.... تائهة في ظلام النسيان.

تراجعت سعاد بهلع شديد.. كأن زلزالا ضرب شواطئها على غدر... وهي في سبات عميق...

أو كأن ضوءًا سطع من بعيد... ليريها جروحها التي ما زالت تنزف داخلها، وهي تظن أن كل شيء في مكانه السليم.

عندها اكتشفت أن ضحكاتها الصاخبة.. وثرثرتها التي لا تنتهي... ما هي إلا صرخات روحها... تستنجد وحيدة.. خائفة.. في قاع مظلم..

تبحث عن منجد لها.. منذ سنين.

جلست سعاد تردد في ذهول..

أنا!! أنا!! التي تنظر إلى أعين الجميع بمنتهى الثقة... أكتشف أنني لا أستطيع النظر إلى عيني أنا؟!

نعم... كانت تلك أحلك لحظات حياتها ظلامًا.... ووضوحًا في نفس ذات اللحظة....

فقد التقت الليلة بأسوأ كوابيسها ومخاوفها على الإطلاق.. وجها لوجه في لقاء لم يكن أبدًا في الحسبان....

هرعت سعاد لسريرها.... مستعينة بسلطان النوم.... راجية منه أن ينسيها ما حدث اليوم.

وبعد أسابيع... وفي المساء..

ذهبت سعاد إلى النوم... فغلبها النعاس سريعًا إلى عالم الأحلام.... فرأت في منامها فتاة صغيرة جميلة تقف أمام غمامة سوداء....

وكانت الفتاة تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تدفعها ولكن دون جدوى...

شعرت سعاد بأنها هي تلك الفتاة، وأن تلك الغمامة السوداء ما هي إلا آلامها وأوجاعها.. بل مخاوفها...... ذلك الجانب المظلم من حياتها... الذي حاولت جاهدة أن تتجنب مواجهته رعبًا.. أو حتى التحدث عنه بصمت.

كسر لسانها حاجز صمتها وذهولها.... قائلا للفتاة: تقبليه... احتضنيه بحب...

احتضنته الفتاة بحب.... ولكن الأغرب أن تلك الغمامة احتضنتها بحب وشوق أكبر!!!

تساءلت الفتاة في دهشة.. قائلة للغمامة: كيف تحتضنني بحب هكذا؟! ألست الخوف؟!!

- أنا الخوف..

أشعر بالحب أيضًا وأحبك كثيرا ولا نية لي لأذيتك بل أنا وجدت لإسعادك.

- قالت باستنكار: كيف؟!

- عندما تشعرين بوجودي ماذا تشعرين أنك تحتاجين في تلك اللحظة؟

- وما دخل احتياجي بالخوف؟!!!

- الخوف هو احتياج معلن... لافتقاد شعور ما أو الحاجة إليه... كالحب أو الأمان مثلا.. ولنقل هنا إنه الحب.. ولكن السؤال الأهم هنا.... هل من الممكن أنك لست بحاجة إلى وجود الحب؟ وماذا سيحدث إذا لم تحصلي عليه أو تمتلِكيه أو تفقديه؟!

شعرت بنبضات قلبها تتسارع وقالت: توقف أنت تزيدني رعبا.

- وماذا لو كان الجواب أنك لست بحاجة إلى الحب لتشعري بقيمتك أو لتصلي للاتزان أو السلام أو السعادة؟ ففي كل مرة تشعرين فيها بأن الحب في الخارج.. تشعرين بالخوف.. لأن مصدر الحب ليس بالخارج، وإنما يعطى إليك من الله.. من خلالك..

عندها ينبع الحب من الداخل فقط... يتلاشى الخوف... ولن تشعري أبدًا أنك في حاجة إلى أحد.. أو إلى أي شعور من الخارج.

واستكمل قائلا: لقد خلقتِ لتعيشي بهجة الحياة ونعيمها... لتكوني حرة كالطير.... فأنت لست بحاجة إلى شخص أو واقع يشعرك بالأمان.

فأنت بالله مكتملة.. وبغيره ناقصة.

وعلى وقع تلك الكلمات استقظيت سعاد من نومها تشعر بسلام يغمر روحها كأنما ولدت من جديد بروح جديدة.. أو كأن غشاوة سوداء قد أزيحت عن عينيها لترى الحقيقة.. الحقيقة فقط... بلا زيف أو أقنعة واهية، ارتدتها طوال حياتها لتدخل في سبات عميق.. أو لتؤكد لذاتها أنها ما زالت بخير... حتى نسيت بعد مرور السنين أنها مجرد أقنعة وأوهام.. وأن الحقيقة ما زالت قابعة بداخلها.. تستنجدها منذ زمن بعيد بلا مجيب.

أيقنت سعاد أن تلك اللحظة لم تكن حلما عاديا... وإنما لمسة اتصال بذاتها الحقيقية... وأن قدرها قد تغير من الآن... وإلى الأبد.

ولكن تلك لم تكن النهاية....

بل بداية الرحلة....

رحلة اكتشاف النفس بلا أقنعة مزيفة... رحلة الوصول إلى رغد الحياة ونعيمها وبهجتها....